اللغة والصورة الشعرية في شعر القدس عند الشاعر سميح القاسم

أ. إيمان مصاروة

باحثة وكاتبة - الجليل - فلسطين

مقدمة

القدس، هذه المدينة العريقة ذات الرونق التاريخي الفريد، تمثل قلبًا ينبض بالمعاني والرموز العميقة في الثقافة العربية والفلسطينية خاصة. فالقدس منذ القِدم تعتبر مهد الروحانيات وأمّ المدن جميعًا. إنها مدينة السلام، رغم أنها لم تهنأ بهذا السلام إلا في بعض المحطات القصيرة من عمر المدن. ذلك أنّ تاريخها شاهدٌ على العديد من موجات المغتصِبين والغازين الذين حاولوا الاستيلاء عليها واحتلالها ليضعوا تحت سيوف غطرستهم وغرورهم أكثر المدن قيمةً ورمزية في العالم. ولهذا السبب يُطلق عليها أحيانًا لقب «أرض الحياة والموت، والحرب والسلام، والجنة والنار»[1].

تُعد القدس لكونها مهد الديانات السماوية «اليهودية والمسيحية والإسلام»، مكانًا يحتضن

(1) صلاح، أميرة عبد الحكيم. القدس في الشعر: دراسة مقارنة بين الفلسطيني محمود درويش، والإسرائيلي يهودا عميحاي، والإنكليزي وليام بليك. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الشرق الأوسط، 2018، ص2.

الشوق الروحاني للخلاص وهمزة الوصل بين العُبّادِ وبين الله. فحيثما نظرتَ تجد فيها آثارًا تُجسِّد الأحداث التاريخية وتروي قصص من مروا منها أو أقاموا فيها أو استوطنوها على مرِّ الزمان، وآخرهم الاحتلال الإسرائيلي الغاشم الرابض على صدر القدس وصدور ساكنيها من الفلسطينيين والعرب المسلمين والنصارى.

والقدس لما تمثله من رمزية دينية وتاريخية وسياسية، تعتبر ذاكرة العرب عامة والفلسطينيين خاصة، وترتبط بالكثير من الدلالات والإيحاءات المشرقة التي جعلت منها مادة روحانية نابضة بالحياة للأدباء والشعراء قديمًا وحديثًا.

لقد كانت القدس بشموخها وشموخ مآذنها ونواقيس كنائسها وقبابها، وعبق التاريخ والتراث في شوارعها وأزقتها أرضًا صلبة يقف عليها الفلسطيني بعزة وإباء مؤكدًا على عروبتها وإسلاميتها، وصارخًا في وجه المحتل في كل حين وآنٍ أنّ صاحب البيت راسخٌ وصامدٌ وأنّ المحتلّ طارئٌ لا يملك أدنى مقومات الوجود والبقاء، ومعلنًا للدنيا أنّ القدس هي الهوية وهي الحضارة وهي التاريخ، وهي في قلوب العرب والفلسطينيين – هي فلسطين.

صوّر الشعراء الفلسطينيون الأحداث التي مرت بها القدس ووثقوا تاريخها الطويل في قصائدهم، وعبّروا عمّا تعرضت له المدينة من طمس للهوية والمعالم بفعل عمليات التهويد التي لم تتوقف منذ احتلالها بوحشية في عام 1967. كما عبّروا عن الاعتداءات التي تعرضت لها المدينة منذ ذلك الحين، وعن بشاعة العدو وجرائمه وتنكيله بأهل القدس خاصةً والفلسطينيين عامةً. ومن بين الشعراء الذين استخدموا قوة الكلمة لتصويرها بكل جمال وغموض، نجد الشاعر سميح القاسم، الذي ترك بصماته الشعرية الجميلة والمؤثرة حول هذه المدينة المقدسة لتظل شاهدًا على مكانة هذه المدينة في قلبه وعظيم حبه وتعلقه بها.

لذلك نجد أنّ الشاعر سميح القاسم كتب في القدس القصائد القصيرة والطويلة والقصائد السربية، ونشر ديوانًا يحمل القدس كعنوانٍ وحاضنٍ لها، سمّاه «كتاب القدس». وهذا الديوان «هو مجموعة شعرية تم نشرها احتفالًا بالقدس عاصمة للثقافة العربية عام 2009م، وصدر عن بيت الشعر الفلسطيني/ وزارة الثقافة الفلسطينية في رام الله. ويتضمن عددًا من القصائد كتبها الشاعر سميح القاسم منذ عام 1968م حتى عام 2008م. والتي

تتناول مواضيع مختلفة مرتبطة بالقدس والتاريخ الفلسطيني، منها «زنابق لمزهرية فيروز»، و«المذلة»، و«الانتفاضة»، و«مزامير (5 – 6 – 67)»، و«إذا نسيت القدس»، و«اسمي القدس»، و«فسيفساء على قبة الصخرة»، و«أخذة الأميرة يبوس»»[1]، وغيرها.

لقد تناول عدد من الدراسات والمقالات صورة القدس في شعر الشعراء ومنهم الشاعر سميح القاسم مثل دراسة د.أسماء سالم[2]، ودراسة نادر قاسم[3]، ومقالة[4] في صحيفة الأيام الإلكترونية (2010). وجاءت هذه الدراسات لتبين صورة القدس في شعر القاسم بصورة واقعية ووصفية في الشعر تركز على المكان والمكانة، متكئة على أبعاد هذه الصورة الدينية والوطنية والتاريخية والتراثية والسياسية والأسطورية والرمزية. وفي هذه الدراسة ارتأت الباحثة أن تنحو منحىً آخر مركزة على اللغة والأسلوب ومصادر الصورة الشعرية للقدس في شعر سميح القاسم، لتكون إضافة لما كُتب من قبل في شعر القدس عند القاسم، ولتؤكد أنّ القاسم عندما كتب للقدس، كتب بلغة وأسلوبٍ فرضتهما خصوصية المكان ومكانته والظرف الذي تعيشه المدينة الآن منذ احتلالها عام 67.

اللغة في شعر القدس عند سميح القاسم

اللغة هي الوعاء اللفظي للأفكار والانفعالات ومكنونات النفس، يعبّر من خلالها الكاتب أو الشاعر عما يجول في خاطره وما يريد إيصاله من رسائل للقارئ. ويتفاوت الأدباء والشعراء في قدراتهم في اختيار الألفاظ والعبارات التي تناسب الموقف والفكرة والسياق، ويتفاضلون فيما بينهم من حيث القوة وجزالة الألفاظ أو سهولتها وسلاستها

(1) سالم، أسماء جاد الله، القدس في شعر سميح القاسم – من خلال ثلاث قصائد، مجلة المنارة، 23(1أ)، 2017. ص246.

(2) سالم، أسماء جاد الله، القدس في شعر سميح القاسم – من خلال ثلاث قصائد، مجلة المنارة، 23(1أ)، 2017.

(3) قاسم، نادر، القدس في الكتابة الشعرية التناصية عند سميح القاسم، أماراباك – 5 (12)، 2014.

(4) سميح القاسم يطرق بقصائده أبواب القدس.
https: / /www.al – ayyam.ps /ar_page.php?id=7e4cd6dy132435309Y7e4cd6d

وقوتها التعبيرية ودلالاتها الظاهرة والباطنة. ذلك أنّ «معنى أية لفظة لا يمكن أن يتحدد إلا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ»(1). لذلك نجد أنّ وضع الألفاظ في سياقاتها المناسبة يُعدُّ أمرًا ذا أهمية بالغة. رغم أن الشاعر قد يغوص في لحظات شعرية تنطوي على جوانب غير مدركة، إلا أنه لا يمكنه الاستغناء عن انتقاء الكلمات بعناية واختيارها بدقة. فالألفاظ تشكل الأداة الأساسية التي يستخدمها الشاعر للتعبير عن مشاعره وأفكاره، وتعكس جوانب من شخصيته الفنية، وقدرته على التأثير في المتلقي، حتى لا يدع «الحالة الشعرية وما صاحبها من توقد ذهني وإيقاعية ملحة، تسرع إلى قوالب مألوفة محددة بجاذبيتها الموسيقية، ومحددة بصداها في النفوس، وكذلك بمضمونها المقرر»(2).

لقد جاءت لغة القاسم في قصائده سهلة متيسرة سلسةً تنأى عن المفردات المعجمية الغريبة، وتعبر عن مراد الشاعر وغاياته بدقة متناهية رغم بساطتها. فالبساطة وسهولة المفردات هنا، جاءت مظهر قوة وليس ضعفًا من الشاعر أو عجزًا منه عن توظيف مفردات أكثر جزالة وغرابة، فالغاية هي إيصال رسائل عميقة عن القدس ومن القدس إلى الدنيا أجمع ليفهم ويستوعب ويدرك الغاية كل من يسمع ويقرأ. ومن هنا، عزز الشاعر من القوة الضاغطة للمفردات بأساليب أخرى أكثر تعبيرًا وأبلغ قولًا وأشدّ وقعًا وتأثيرًا على المتلقي. فكان التكرار، وخصوصًا اسم القدس وأسماءها الأخرى، مظهرًا من مظاهر تميز القاسم بلغته الشعرية التي أراد لها أن تهز مسامع ووجدان القاصي والداني. ثم كان الاختيار بين المفردات القريبة في المعنى، والاختيارُ ملكٌ شخصيٌ للشاعر، فله أن يختار ما يشاء ومما يشاء من المفردات ليضع رسالته موضع التأثير والتبليغ.

التكرار

التكرار هو أداة أدبية قوية تستخدم في الكتابة والشعر بشكل واعٍ ومدروس. وللتكرار

(1) العشماوي، محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص320.

(2) زكي، أحمد كمال، دراسات في النقد الأدبي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1980، ص123.

أهمية بالغة عند توظيفه توظيفًا واعيًا. ومن هنا، نجد أنّ الشاعر القاسم قد أحسن توظيفه للتكرار لغاياتٍ لغوية وفنية عديدة. ومن أهمها:

التأكيد والترسيخ وتحقيق التواصل الفعال عند المتلقي: فعند تكرار كلمات أو جمل، يتم تأكيد المعنى وترسيخه في ذهن القارئ. مما يُعزز الانطباع الذي يرغب الكاتب في إيصاله ويزيد من قوة التأثير.

يقول القاسم في قصيدة «اسمك القدس»:

ولنا عبرة الموت في عبرة البعث من موتها

من تكون سوى حسرة الروح في صمتنا

من تكون سوى شمسنا

وسوى عرسنا

وسوى قدسنا

من تكون إذا أنشد المنشدون

من تكون؟

ففي السطور السابقة وظف شاعرنا التكرار في الكلمة (عبرة - الموت - سوى) والجملة الاستفهامية (من تكون). والحديث هنا عن القدس، حيث أراد الشاعر من خلال تكرار الاستفهام الاستنكاري (من تكون؟)، ومن خلال تكرار أسلوب الاستثناء (سوى)، التأكيد على فكرة واضحة وضوح الشمس، أن القدس التي في موتها موتنا وفي حياتها حياتنا، هي (قدسنا)، هي قدس الشاعر وقدس الجميع.

الإيقاع والنغم: يُسهم التكرار في إنشاء إيقاع جذاب ونغم مميز في النص، مما يساعد على إيصال الشعور بالتكرار نفسه وإحداث تأثير فني جميل. وهذا ما لمسناه في نداء الشاعر القاسم للأساطير المكذوبة التي تريد دمغ وجه القدس بهوية دخيلة طارئة، حيث يقول في نفس القصيدة:

أنت لم تنصفي

يا الأساطير لم ترفعي أنت أبراجها

يا الأساطير فاعترفي

يا الأساطير لم ترفعي أنت أبراجها

يا الأساطير فاحترمي روحنا واسمنا

واتركي حلمنا

يا الأساطير. زائلةٌ أنت عن مجد أسوارها

فتكرار النداء هنا في (يا الأساطير) عزز الإيقاع الداخلي لهذه السطور وكثف النغمة الموسيقية فيها، مما مكّن إيصال هذا الشعور المتنامي في ذات الشاعر (والجميع من خلال ضمير الجمع المتصل - نا - في روحنا، اسمنا، حلمنا) حول أكذوبة هذه الأسطورة التي تدّعي أن القدس لليهود.

تعزيز الشخصية والهوية. لقد وظف شاعرنا التكرار للتأكيد على هوية القدس بتكرار اسمها من خلال معطيات وظروف وأحوالٍ يمر بها الإنسان، وفي كلها يظل اسم القدس هو القدس، كما بيّن سميح القاسم في السطور التالية من نفس القصيدة:

اسمك القدس في صلوات السنين

تحت كابوس ليل هجين

واسمك القدس في كل حال وحين

واسمك القدس في السلم والحرب

والقدس في الشعر والرقص والسر والنثر

والجهر والقدس في القمح والورد والعشب

والقدس في الحقد والحب في الحلم والرسم

والقدس في العسر واليسر والقدس

في الخير. والقدس في الشر. في البرد والحر

فما جاء هذا التكرار لاسم (القدس) إلا للتأكيد على هويتها العربية والإسلامية في كل أحوالها، وعزز من هذا التأكيد على الهوية توظيفه المتضادات التي تدلل على أنها القدس في الشيء وضده وفي كل وحين وفي كل حال. في السلم والحرب، والعسر واليسر، والشعر والنثر، في السر والجهر، والحقد والحب، والخير والشر، والبرد والحر.

وقد يوظَّف التكرار لإعطاء الدلالات المتعددة على النص، وقد يُستخدم بطريقة مجازية لإضافة طبقات من الدلالات والإحساس بالعمق والغموض. ففي الأخذة السادسة من قصيدة «أخذة الأميرة يبوس»، يقول القاسم:

وَلْيَكُنْ أن تجوع يبوس

كثيرًا تجوع

وليكن أنها تجد القوت في بيته

وَلْيَكُن أَنْ تَضيع يبوس

كثيرًا تضيع

وليكن أنها تهتدي

بصدى صوته...

فتكرار الشاعر لجملة (وليكن أن)، أضفى على النص دلالاتٍ عميقة وغموضًا يدفع المتلقي للتأويل، باحثًا عن مراد الشاعر من إثبات كينونة الجوع والضياع لـ(يبوس). وتكرار مفردة (كثيرًا) أضاف دلالاتٍ وأبعادًا على النص يُفهم منها أنّ الشاعر يعلم أنّ يبوس كثيرًا ما تجوع وتضيع، وأنّه غير قلق من هذا، ذاك أنه يريد إخبارنا أنه وإن جاعت يبوس، ستشبع من جديد، وإن ضاعت ستعود وتهتدي. إذًا، لم يأتِ التكرارُ هنا عبثًا أو اعتباطًا، ولكنه تكرار مقصود له جمالياته وتجلياته العميقة التي تزيد النص غموضًا وتشويقًا وإثارة.

أضف إلى ذلك توظيفه للفعل المضارع الذي يفيد الاستقرار والاستمرارية (يكُن – تجوع – تجِد – تضيع – تهتدي) في إشارة إلى أن المدينة كانت ولم تزل تمر بمراحل اليسر والعسر، وتخرج في كل مرة أقوى مما كانت، فهي ثابتة موجودةٌ دائمة كاستمرارية الحدث الذي يؤديه الفعل المضارع.

الاختيار الأفقي والعمودي

من مظاهر مقدرة الشاعر وتميّزه في اللغة، اختياره للكلمات المناسبة من بين العديد من البدائل المعجمية المتاحة له، حيث لا يكون هذا الاختيار عشوائيًا، بل يتم دراسته بدقة ويكون مقصودًا لأغراض بلاغية. يُظهر الشاعر في اختياره الدقيق للكلمات القدرة على استيعاب عُمق الدلالة اللفظية التي يرغب في التعبير عنها. يستخدم الشاعر هذه المقدرة للتأكيد وترسيخ المعاني، وخلق الإيقاع والنغم المناسب للنص، وتعبير عن المشاعر والأفكار بشكل مميز وجذاب للقارئ. ولذلك «فإنَّ محورَ الاختيارِ الأفقي والعمودي للمفرداتِ يقومُ على أساسٍ منَ المفاضلةِ بين مجموعة المفرداتِ المُعجميةِ المتاحة، ولا يعني ذلك أنَّ تلك المفردةَ هي الأنسبُ دائمًا، بل قد تكون أنسبَ في موضع، ولا تناسبُ في موضعٍ آخر»[1].

ومن شواهد الاختيار الأفقي عند الشاعر سميح القاسم في قصائد القدس، قوله في نفس القصيدة:

ونهاري القصير

نوره شبَّ من نورها

قابسًا فكرةَ الدفء من دورها

في الصراع الأخير الأخير،

فقد اختار الشاعر لوصف انبعاث نور نهاره القصير مفردة (شبَّ) في قوله (نوره شبّ من

(1) الرواشدة، سامح، جماليات التعبير في القرآن الكريم، الصايل للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط1، 2013، ص25.

نورها)، والتي كان يُمكن الاستعاضة عنها بكلمات قريبة المعنى والدلالة مثل (خرج، قام، انتشر، بانَ، ظهر،... وغيرها). لكن الشـاعر وهو سيد الموقف والقرار هنا قد اختار مفردة (شبَّ) على وجه التحديد لما فيها من قوة وعمق في التعبير، ودقة في التصوير، وسرعة في وقوع الحدث.

ومن قصيدة «فسيفسـاء على قبة الصخرة»، كان الاختيار الأفقي للمفردات هو وسيلة الشاعر القاسم في التعبير عن تحريك رتاج باب المدينة المقدسة في قوله:

يا السورُ.. يا الأبراجْ

لا بأس يا أسرارنا الحميمة

كم فاتحٍ حاول أن يُزحزحَ الرِّتاج

ليستبيح روحنا القديمة

فعاد بالهزيمة

لقد اختار القاسـم مفردة (يُزحزح) لتحريك الرتاج من مكانه، رغم أنّ هناك مفرداتٍ أخـرى تفيد معنى الرفع والتحريـك مثل (يُزيح، يرفعُ، يُنحّي، يُحـرّك، ينزع)، ولكنها في حقيقة الأمر لن تبلغ دقة وقوة (يُزحزح) في التعبير وتخيل المشهد. فمفردة (يُزحزح) تنطوي على أكثر من معنى يجعلها الأنسـب في هذا السـياق، فالزحزحة تُفيد البطء في عمل الشيء والثقل الشـديد في تنفيذه فضلًا عن أنها مفردةٌ اهتزازية تعـزز وتكثف الإيقاع والنغمة في العبارة الشعرية.

أما الاختيار العمودي فيُمثّل المبالغة في فعل الشيء أو في الصفة التي تمثلها المفردة المُنتقاة. وهذا ما وجدناه من خلال تتبعنا لنصوص الشـاعر سميح، إذ وظف الاختيار العمودي في أكثـر من موضع من قصائده. ففي كلامه عن المزامير التي تدّعي يهودية القدس من قصيدة «اسمك القدس» يقول القاسم:

اسمها «القدس» يومًا.. ويومًا «يبوس»

واسمها أورشليم

في كتاب قديم قديم

طافح باغتراب المزامير عن روحها

فكلمـــة (طافح) أعلاه، تدل على أعلى درجات الامتـــلاء. ولذلك نقول في المثل «طفح الكيل». وللقارىء أن يتخيّل ما في هذه المفردة من قوة وبلاغة في التعبير والتصوير. لقد كان شـــاعرنا دقيقًا هنا في توظيف هذه المفردة للدلالة على زيف هذه الكتب القديمة وامتلائها بالكذب والخداع لطمس هوية القدس. مع التذكير أنّ الشـــاعر وظّف مفردة (طافح) مرة أخرى في قصيدته «أخذة الأميرة يبوس» في الأخذة الرابعة، في قوله:

إلى ولدٍ رأسهُ (طافحٌ)

فوق كل الرؤوس

وفي قلبه نجمة لا تنام

وفي الأخذة الســـابعة من «أخـــذة الأميرة يبـــوس»، وظّف الشـــاعر الاختيار الأفقي للمفردات في مفردتين كما هو واضحٌ في قوله:

أنا كاهن الروح والقلب في المقتِ والحب

أغرسُ في لَيْلها نَجْمَه

وأرقم بالنار والعطر

في الماء والصخر

أرقم أخذتها واسمها واسمه

فكلمة (أغرس) التي وظفها ليعبر عن وضع النجوم في الليل، جاءت قوية معبرة تحرك في المتلقي ملكة التخيّل ليتمثل في ذهنه عملية غرس النجوم في الليل كما تُغرس الأشجار. لقد اختار شـــاعرنا مفردة (أغرس) تحديدًا ولم يقل (أعلّق – أضعُ – أحطُّ – أثبّتُ....). ومثلها مفردة (أرقُمُ) والتي قصد بها الكتابة هنا. ولكن (الرّقْمَ) يعبّر عن أشـــد درجات الوضوح والتبيان في الكتاب، ولذلك قال الله عزّ جلّ في كتابه (كتابٌ مرقوم)، وقال الشاعر:

سأَرْقُم في الماء القَراحِ إليكُم   عل بُعْدِكُمْ، إن كان للماء راقِم

ومن كل ما سبق نستطيع تقدير أهمية الاختيار في المفردات عند الشاعر، ودلالته على براعة الشاعر وعمق فكرته واتساع معارفه وثقافته. ومن هنا ليس غريبًا أن يُعدَّ الاختيار بشقيه الأفقي والعمودي مظهرًا مهمًّا من مظاهر اللغة الشعرية عند الشعراء والأدباء.

الطباق

وهو «الجمع بين الشيء وضدّه في الكلام»[1]، وقد يكونان اسمين كقوله تعالى: (وتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُود)[2]، أو فعلين كما في قوله تعالى: (وَأنّه هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)[3]. وغنيٌّ عن القول ما للطباق (التضاد) من أهمية في إبراز الجمال والتعقيد في النصوص الشعرية، حيث يُضفي التضاد جمالية خاصة على النص ويجعله أكثر تعقيدًا وغنى. كما يُساهم في منح النص عمقًا أكبر ويدفع القارئ للتفكير والتأمل في المعاني المختلفة. لقد وظّف القاسم الطباق توظيفًا فنيًّا ودلاليًّا مُبهرًا، واستطاع أن يجمع بين المتضادات لإبراز الصورة الكاملة وإثراء المعنى وتكثيف التأثير. يقول القاسم في «اسمك القدس»:

واسمك القدس في السلم والحرب

والقدس في الشعر والرقص والسر والنثر

والجهر والقدس في القمح والورد والعشب

والقدس في الحقد والحب في الحلم والرسم

ففي السطور السابقة سيلٌ من التضادات التي ساقها الشاعر لتعزيز فكرة أنّ اسمها القدس وستظل القدس. لذلك قال: في السلم والحرب، والشعر والنثر، والسر والجهر، والحقد والحب.

---

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتوثيق: يوسف الموصلي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 2003، ص303.

(2) سورة الكهف: 18.

(3) سورة النجم: 43.

ويُمكـن للتضاد أيضًا أن يعـزز الإيحاءات والرموز في النص، ممـا يغنيه بمعانٍ متعددة وأبعاد فنية، إضافة لتحقيق توازن بين المفاهيم المتضادة وتحقيق التباين بين العناصر الشعرية.

الجناس

يُعتبر الجناس أحد أشكال الزخرفة اللغوية التي تُضفي جمالية وإيقاعًا خاصًا على النص الشـعري. فهو يزيد من جمالية النص ويجعله أكثر إثارة للاهتـمام، حيث يُعزز من الإيقاع والنغم الشـعري، كما يُسـهم الجناس في تحقيق الانتقالية اللفظيـة والتداخل الإيقاعي بين الكلمات. لهذا أكثر شـاعرنا القاسـم من توظيف الجناس في نصوصه بعناية ودقة، مخلخلًا النظام الموسيقي في العبارات، ومعززًا من خلاله الإيحاءات والرموز في النص الشعري، مما يُضيف له أبعادًا أخرى وغنى فنيًا فريدًا.

ومن توظيف القاسم للجناس في حديثه عن اليهود الذين استولوا على القدس، جاءت المقابلة بين مفردات تعطي معانيَ متناقضة تتباين بين النعومة والكلام المعسـول للتمكن من دخول المدينة والعيش فيها، ثم تنكشـف الحقائق عن النوايـا الإجرامية والخبيثة المبيتة تجاه هذه المدينة. يقول القاسم:

هجموا بكلام الحرير وصمت الحديد

وأقاموا على جسدي الهش مملكةً بالبريد

قلت ما قالت القدس.. لا بأس نحيا معًا

جثةً.. وكفن

ومعًا.. نحن نبني قصور الوطن

ثم نبني قبور الوطن

بالطراز الجديد

فجانس الشـاعر بين (الحرير – الحديد) لإظهار المفارقة الشـديدة بين معنى ودلالات المفردتين، وكذلك بين (قصور – قبور) فجاءت (قصور) متوازنة في السـياق مع (الحرير)،

وجاءت (قبور) متوازنة مع (الحديد).

وفي ذات النص «اسمك القدس» يقول القاسم:

واقعٌ أم تُرى

حلمٌ في الكرى

عاد عهد السرى

دون أم القرى

وجرى ما جرى

فجانـس بين (ترى – كرى – سرى – قـرى – جرى)، مما خلق إيقاعًـا داخليًّا ونغمة موسـيقية أضفت على النص جمالًا ودلالاتٍ عميقة تعكس واقع القدس وضياعها وغفلة العرب عنها (دون أم القرى).

الصورة الشعرية

إن كل جزئيـة في القدس تبعث عـلى الإلهام والتجلي في التصوير الشـعري، ففيها من المشاهد والتفاصيل والتاريخ والتراث والرموز والتناقضات والواقع السياسي والاجتماعي اليومي الكثير الكثير، الأمر الذي يحرك شـهية الأديب والشاعر من أين يبدأ وكيف يصف وماذا يصوّر.

ومن هذا المنظور سـتتبع الباحثة صورة القدس في شعر القاسم من خلال ثلاثة مصادر للصورة الشعرية وهي، الانزياح وتبادل المدركات، والتناص، والأسطورة.

الانزياح وتبادل المُدركات

يعتمد الانزياح على الاسـتخدام المبدع للغة والأسـاليب الأدبية مثل المجاز، الرمزية، التعابير غير المباشرة، الاستعارة، وغيرها من الأدوات الأدبية. هذا النوع من الكتابة يسمح للكاتب بإثارة الفضول والتفكير لدى القارئ، ويجعله يسـتمتع بمعانٍ متعددة وتفسيرات متباينة للنص، ويترك الباب مفتوحًا أمام المتلقي لتأويلات عديدة.

ويرى ريفاتير أن الانزياح «يكون خرقًا للقواعد حينًا، ولجوءًا إلى ما ندر حينًا آخر، فأما في حالته الأولى، فهو من مشمولات علم البلاغة، فيقتضي إذا تقييمًا بالاعتماد على أحكامٍ معيارية، وأما في صورته الثانية، فالبحث فيه من مقتضيات اللسانيات عامة، والأسلوبية خاصة»[1].

ففي قصيدة «فسيفساء على قبة الصخرة» ينادي الشاعر على قناطر المدينة مُسقطًا عليها خصائص الحياة قائلًا:

أيتها القناطر

لا تسدلي الستارة

عدتُ من المهاجر

عدتُ من الذاكرة المنهارة

بكل ما في الروح من شعائر

والمعروف أيضًا أن الذاكرة شيءٌ معنوي، فكيف جعل منها الشاعر مكانَ عودة ورجوع؟ هنا تبرز تجليات الانزياح عند القاسم عن اللغة المعيارية وتوظيفه له توظيفًا فنيًّا ودلاليًّا يضفي التشويق والمتعة والغموض على النص. وفي نفس القصيدة يقول:

الفارس المسلمُ يستريح

تحضنه زيتونة

والسيد المسيح

يُطلُّ من أيقونة

في السطور السابقة على قصرها تكثيف رمزي عالي، فالفارس المسلم إشارة من الشاعر أنّ القدس عربية إسلامية، وتحريرها قادم على يد فارس مسلم، هذا من جهة. ومن جهة

---

(1) المسدي، عبد السلام، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط3، 103.

أخرى، وظّف الشاعر الانزياح الدلالي في (تحضنه زيتونة) والمعروف أن الزيتونة لا تحضن، لكنه نوعٌ من التشخيص الذي يبعث الحياة في النص من خلال إسقاط صفات الإنسان وأفعاله على الأشياء المادية. وكذلك الأيقونة هي رسم أو صورة، وهنا تخيّل الشاعر أنّ المسيح المنتظر يكاد يخرج من الصورة فقال (يطلُّ من أيقونة). أضف إلى ذلك دمج الشاعر من خلال توظيف الرمزية بين الديانتين في هذه الجزئية القصيرة في قصيدته.

والأمثلة على الانزياح وتوظيف الاستعارة والمجاز والرمزية كثيرة جدًّا في نصوص الشاعر عن القدس (وخصوصًا قصيدة اسمي القدس) لا يتسع المجال للاستشهاد بأكثر من هذا القدر هنا.

التناص

تعج نصوص القاسم بالتناص الديني والتاريخي والشعبي، فمن خلال التناص، يستطيع الشاعر إشاعة الإحساس بالماضي أو الاستدلال على تجارب البشرية التاريخية. وبواسطة الارتباط بين النص الحالي والنصوص المنسية، يتيح التناص الفرصة للشاعر لاستكشاف المواضيع المعقدة والرموز الغامضة. وكما ترى جوليا كريستيفا، فالتناص هو «أن كل نص يتشكل من تركيبة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى[1]».

لقد شكل التناص التاريخي والديني مساحة لا بأس بها من نصوص الشاعر القاسم في شعر القدس، ذلك أنّ القدس مدينة متعددة الأبعاد والتعقيدات، تحمل في طياتها تاريخًا غنيًّا وأهمية رمزية وثقافية هائلة للعديد من الشعوب والأديان. ومن الناحية التاريخية، تعود أصول القدس إلى العصور القديمة جدًا، وقد شهدت تغيرات جذرية على مر العصور بسبب تتابع الاحتلالات والفتوحات عليها وتنوع الصراعات السياسية والدينية. ومن الناحية الرمزية، تعد القدس واحدة من المدن الأكثر رمزية في العالم. حيث ترتبط بأحداث

(1) الغذامي، عبد الله، الخطيئة والتكفير - من البنيوية إلى التشريحية - قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، النادي الثقافي الأدبي - جدة، ط1، 1985، ص13.

وشخصيات مهمة في الأديان السماوية الكبرى.

وظف الشاعر في قصيدته «اسـمك القدس» العديد من التناصات الدينية والتاريخية في تشكيل صوره الشعرية، ومنها:

محض قافية. مثل كل القوافي. وحين يطل المعريُّ

يبصرها. وهي تبصره. فتهيج. وتغدو لزوميةً

كالبراقْ

والعراقْ

وفي النص أعلاه إشارة للزوميات وقصة الإسراء والمعراج.

وفي موضع آخر من القصيدة يقول القاسم:

حول زيتونةْ باركتها دماء المسيح. وداليةْ في جبال الخليل

اسمها «القدس» يومًا.. ويومًا «يبوس»

واسمها أورشليم

في كتاب قديم قديم

طافح باغتراب المزامير عن روحها

ففي النص أعلاه تناصاتٌ متعددة، منها ما هو لأسـماء القدس التاريخية، ومنها صلب المسـيح والمزامير التلمودية. وكلها جاءت منسجمة مع السياق العام للنص، إضافة لرموز أخرى كالزيتونة ودالية الخليل لاشتهار الخليل بالكروم. فالشاعر هنا يتحدث عن القدس، ومن الطبيعي أن تتوسـع ذاكرته الشعرية لتمتد للتاريخ القديم ومعطياته، والوقت الراهن ومعطياته. فالحديث في القدس لا تحده الحدود لأنه حديث يتمدد أفقيًا ليشمل فلسطين من البحـر إلى النهر، وعموديًا ليصل إلى أول البدايات والتناقضات التي تتصارع في هذه المدينة العروس.

وفي «فسيفســـاء على قبة الصخرة» يوظف شاعرنا التناص مع التراث الشعبي مستوحيا تناصه من قصة (مســـمار جحا)، للإشارة إلى أنّ حارة اليهود في القدس ما كانت إلا كمسمار جحا الذي استولى من خلاله على عموم البيت. يقول القاسم:

رأيت مسمار جحا مفقوده موجود

رأيت مسمار جحا

موجوده مفقود

رأيت مسمار جحا

في حارة اليهود..

حيث تكررت عبارة مسمار جحا ثلاث مرات لتأكيد الفكرة والدلالة.

والتناص في قصائد القاســـم عن القدس كثير جدًّا لا يكفيه عنوانٌ في دراســـة مقتضبة. ويبقـــى التناص بوابة مشرعة للشـــاعر على المـــاضي ليلج منه إلى الحاضر، ويبقى وســـيلة للتواصل بين الشـــعوب والثقافات المختلفة، لما له من أهمية في فهم الواقع الحالي من خلال محطات مماثلة طواها التاريخ ولكنها حاضرة في الذاكرة الثقافية والشعرية.

الأسطورة

تعتبر الأساطير مصادر غنية بالمعاني والمفاهيم الرمزية، وتوظيفها في الشعر يمنح النص عمقًا وتعقيدًا يجـــذب اهتمام القارئ ويحفّز فضوله لاستكشـــاف محتـــوى النص وتحليله. والأســـطورة بتعريفهـــا المتداول هي «مجموعة مـــن الحكايات الطريفـــة المتوارثة منذ أقدم الفترات والعهود الإنسانية، تكون حافلة بمختلف أنواع المعجزات التي يختلط فيها الواقع بالخيال ويمتزج عالم الظواهر بما فيه من إنســـان وحيوان ونبات ومظاهر كونية بعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية آمن بها الإنسان الأول، واعتقد بألوهيتها»[1].

وبتوظيفه للأسطورة، سعى القاسم لإبراز قوته الإبداعية والاستثنائية، إذ تُعَدُّ الأسطورة

(1) داود، آمن ، الأسطورة في الشعر العربي ، مكتبة عين الشمس ، القاهرة ، د.ط ، د . ت، ص . 19

وســـيلة تعبيرية قوية تُظهِرُ بعمق جوانبه الروحية والفكرية وتستوعب ما لا تستوعبه اللغة التقليدية. يقول القاسم في «فسيفساء على قبة الصخرة»:

أنا سليل اللات أبي الإله بعل

عمدت

في النيل وفي الأردن والفرات

أنا سليل اللات

أمشي، وخلفي الشمس إلى رحاب القدس أمشي.. وظلي الليل!!

فاللات هو أحد الأصنام التي عُبدت قبل الإسلام وورد ذكره في القرآن الكريم، أما الإله **بعل** فيُعتبر «أهم إله لدى الكنعانيين، وكانوا يعتبرونه الإله المحارب، لهذا صوروه مســـلحًا. وكان الفينيقيون يعتبرونه إله الشـــمس، وقد نقلوا معهم عبادته إلى قرطاج في شمال إفريقيا، حيث أطلقوا عليه الإله بعل هامون»[1]. ولهذا قال عنه القاســـم (أمشي وخلفي الشمس). وفي توظيف الشـــاعر لهذه الأســـطورة دلالاتٌ عميقة يريد أن يقول من خلالها إن فلسطين عربية كنعانية والقدس عربية كنعانية، وفي هذا الاســـترجاع الزمني للأسطورة يريد الشاعر أنْ يثبت هذه الحقيقة للقاصي والداني.

الخاتمة والاستنتاجات

في هذه الرحلة الشـــيقة المليئـــة بعبق القدس والتاريخ والـــدلالات من خلال نصوص الشاعر ســـميح القاســـم في القدس، قامت الباحثة بدراســـة تحليلية نقدية أظهرت بعض التجليات الفنية اللغوية والأسلوبية للشـــاعر في قصائده عن القدس من خلال قصيدتين، هما «اسمك القدس» و«فسيفساء على قبة الصخرة»، إضافة لبعض مصادر صوره الشعرية والتي تمثلت في الانزياح والتناص والأســـطورة. وفي ختام هذه الدراسة، توصلت الباحثة

(1) محيـــدلي، جاد، من هو الإله بعل الذي ورد ذكره في القرآن وفي الكتب العبرية؟ مســـترجع من: من هو الإله بعل الذي ورد ذكره في القرآن وفي الكتب العبرية؟ | النهار.

للاستنتاجات الرئيسية التالية:

– جاءت لغة الشاعر سلسلة سهلة مفهومة رغم تكثيفها وامتلائها بالدلالات والإشارات، مما جعل منها لغة شعرية فريدة تنمُّ عن سعة اطلاعٍ وثقافة واسعة وتجربة شعرية عميقة، تجلت من خلال مبدأ الاختيار الأفقي والعمودي عند الشاعر ومن خلال التكرار الموظف توظيفًا واعيًا ودلاليًا بامتياز، وتوظيفه للطباق والجناس كذلك للتعبير عن غايات ومقاصد أرادها الشاعر ليشحن عباراته بأقصى درجات الطاقة التعبيرية والتفاعلية.

– يمثل الانزياح الدلالي وتبادل المدركات عند الشاعر مساحة تمتد على طول النصوص، والذي استطاع من خلاله أن يخرج عن معيارية اللغة للإتيان بدلالات ومعانٍ جديدة ومبتكرة، جعلت الأشياء المادية والمعنوية تنفعل وتنطق وتتحرك وتتألم، معتمدًا على التشخيص والتجسيم بصورة معبرة ومؤثرة.

– كان للتناص حظ وافر في نصوص الشاعر لما تتمتع به مدينة القدس من عمق تاريخي وحضاري وتراثيٍّ، ولكونها مهد الديانات وبؤرة الصراعات منذ القدم. هنا فكان لا بد أن يوظف الشاعر القاسم التناص لربط الماضي بالحاضر والاستفادة من التجارب السابقة في رسم الواقع الحالي وتشكيل صورته الكلية.

– وظّف القاسم الأسطورة في قصائد القدس باعتبارها مصدرًا غنيًّا بالمعاني والمفاهيم الرمزية، وتوظيفها في الشعر يمنح النص عمقًا وتعقيدًا يجذب اهتمام القارئ ويحفّز فضوله لاستكشاف محتوى النص وتحليله.

ويبقى أن نقول إنّ هذه المقاربة النقدية التحليلية للغة والصورة الشعرية في شعر القدس عند الشاعر سميح القاسم، لامست قشرة الفضاء الإبداعي عند شاعرنا وحاولت هزّ غصن ذاكرته الممتلئة بهذه المدينة وبحبها وبتفاصيلها وقبابها ومآذنها وقناطرها وماضيها وحاضرها الموجع القابع تحت أبشع احتلال عرفته البشرية، ولا يزال الكثير من هذه الكنوز مخبوءًا في الأصداف، مما يجعل باب النقد والدراسة والتحليل مواربًا على مزيد من الدراسات المماثلة.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. داود، آمن، الأسطورة في الشعر العربي، مكتبة عين الشمس، القاهرة، د.ط، د. ت.
3. الرواشـدة، سـامح، جماليات التعبير في القرآن الكريم، الصايل للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2013.
4. زكي، أحمد كمال، دراسـات في النقد الأدبي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1980.
5. سالم، أسماء جاد الله، القدس في شعر سميح القاسم - من خلال ثلاث قصائد، مجلة المنارة، 23(1أ)، 2017.
6. سميح القاسم يطرق بقصائده أبواب القدس.

https: / /www.alayyam.ps /ar_page.php?id=7e4cd6dy132435309Y7e4cd6d

7. صـلاح، أميرة عبد الحكيم. القدس في الشـعر: دراسـة مقارنة بين الفلسـطيني محمود درويش، والإسرائيلي يهودا عميحاي، والإنكليزي وليام بليك. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الشرق الأوسط، 2018.
8. العشـماوي، محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بـين القديم والحديث، دار النهضـة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979.
9. الغذامـي، عبد الله، الخطيئـة والتكفير - من البنيوية إلى التشريحية - قراءة نقدية لنموذج إنسـاني معاصر، النادي الثقافي الأدبي - جدة، ط1، 1985.
10. قاسم، نادر، القدس في الكتابة الشعرية التناصية عند سميح القاسم، أماراباك - 5(12)، 2014.
11. محيدلي، جاد، من هو الإله بعل الذي ورد ذكره في القرآن وفي الكتب العبرية؟ مسـترجع من: من هو الإله بعل الذي ورد ذكره في القرآن وفي الكتب العبرية؟ | النهار.
12. المسدي، عبد السلام، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، ط3.
13. الهاشـمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيـان والبديع، ضبط وتوثيق: يوسـف الموصلي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 2003.